# الفصل الثانى

## اليهود فى عقل بعض الأدباء اليهود

تناول كثير من الأدباء ، من أعضاء الجماعات اليهودية ، قضايا اليهود والمسألة اليهودية ومن اهمهم هاينى وكافكا وبابل وكوزينسكى وروث.

**هاينريش هاينى (١٧٩٧م - ١٨٥٦م) :**

واحد من أشهر شعراء ألمانيا الرومانسيين ، وُلد لأب يهودى ثرى يعمل بالتجارة . تلقى هاينى تعليما بروتستانتيا ثم التحق بمدرسة ابتدائية يهودية ثم بمدرسة ثانوية كاثوليكية . كما أن المدنية التى ولد فيها (دوسلدورف) تغير انتماؤها بحيث أن هاينى غير جنسيته ست مرات دون أن يغير مكان إقامته . وربما ساهم هذا فى إضعاف هويته وتقوية عدم انتمائه إلى وطنه ألمانيا وحماسه لفرنسا وللثقافة الفرنسية . كان هاينى ينوى الالتحاق بخدمة نابليون ولكن هزيمة الجنرال الفرنسى قضت على هذه الآمال ، فاشتغل بعض الوقت فى أمور المال والتجارة لم يحالفه النجاح. ثم درس القانون وتأثر بفلسفة هيجل . وقد تنصّر ، وهو أمر كان شائعا بين يهود ألمانيا ، وعلى وجه الخصوص بين دارسى القانون ، إذ أن الوظائف فى السلك القانونى كانت مقصورة على المسيحيين .

ولكن لم تكن الاعتبارات العملية وحدها هى السبب فى تنصُّر فكما أشرنا لم يكن هناك انتماء محدد لهاينى .

ويمكن القول بأن هاينى أدرك تماما أن الحلولية (الكمونية) (أى حُلول الخالق فى مخلوقاته) هى المدخل الحقيقى لفهم الفلسفة الغربية . فالحلولية بالنسبة له هى تقديس (تأليه) الطبيعة وهى أيضًا تأليه الإنسان وهو تناقض أساسى : إذ كيف يمكن لإله أن يقدس الأشياء المتألهة ، وأيهما يسبق الآخر : الإنسان المتألهة ، أم الطبيعة المتألهه ؟

ويرى هاينى أن إسبينوزا هو نبى الحلولية ، وأن الفلسفة الألمانية المثالية هى الوريث الحقيقى لهذه الحلولية ، ولذا فهى فلسفة «هدامة» ولكن ديباجاتها أكاديمية ضبابية تُخبِّى معناها الإلحادى العميق ، بل وأحيانًا تظهرها بمظهر إيمانى . وقد قام كانط حسب تصوُّر هاينى باستكمال ما بدأه إسبينوزا فأسقط فكرة الألوهية فى ألمانيا (تمامًا كما أسقط الثوار النظام القديم فى فرنسا) . بل إن كان كانط فى تصوُّر هاينى أكثر إرهابية من روبسبير ، فالثورة الفرنسية لم تقتل سوى ملك ، أما كانط (وتلاميذه) فقتلوا إلهًا . ودفاع شلنج عن فلسفة الطبيعة هو ذاته حلولية إسبينوزا . أما فى حالة جوته فإن القشرة الرياضية الصلبة التى تحيط بفلسفة إسبينوزا قد سقطت ، وظهرت روح إسبينوزا الحقيقية ترفرف فى شعره فى **فاوست وآلام فرتر** .

وهيجل هو أيضاً وريث إسبينوزا . وإذا كان إسبينوزا قد ساوى بين الطبيعة والتاريخ أو بين الطبيعة والإنسان وجعل للطبيعة تاريخاً دون



obeikandi.com

أن يجعل منه روحاً ، فإن هيجـــل أعلى من شأن التاريخ وجعل منـــه روحا . ويقف هاين مع إسبينوزا فى إلغاء أية ثنائية وفى الإصرار علـــى المســـاواة الكاملة بين الطبيعة والتاريخ وبين المـــادة والـــروح . هـــذه الحلولية تعبِّر عن نفسها فى شعر هاين العميق ، فهو شاعر نيتشوى (قبل ظهور نيتشه) يحتفى بالحياة حياة تحبئ نفسها بنفسها . وكما يقول فى إحدى قصائده «الحياة الحمراء تنبض فى عروقى ، وتحت قدمى تذعـــن الدنيا ، وفى توهج حب أعانق الأشجار والتماثيل ، وتعيـــش هـــى فى عناقى» . وهذا عالم عضوى يشير إلى ذاته ؛ مات فيه الإلـــه ، ولـــذا فالإنسان هو سيد نفسه ، خالق قيمه وعالمه .

وفى قصيدة «ألمانيا : قصة شتاء» يصل هاين إلى ألمانيا ليسمع فتـــاة صغيرة (رمز ألمانيا) :

كانت تغنى عن الحب وأحزان المحبين
(عن التضحية ، حتى نلتقى)
فى يوم آخر فى عالم أفضل
لا يعرف الألم أو الأحزان .
غنت فى وداى الدموع الدنيوى هذا
عن الحب الذى لا يُمسك به إنسان
عن العالم الآخر العظيم حيث تعيش الأرواحُ فى غبطة
وقد تحوَّلت إلى نشوة أزلية.

ويدرك هاينى أن هذا إن هو إلا الأفيون الدينى الذى يُعطى للجماهير (هذا العملاق الأحمق) ، فيغنى للفتاة أغنية أخرى :

أغنية جديدة ، أغنية أفضل

يجب أن نلدها الآن يا رفاقى ،

ولنبدأ على التوف بناء

مملكة السماء على الأرض ،

فالتربة تعطينا خبزًا يكفى لإطعام بنى الإنسان كلهم ،

وتعطيهم الزهرة والآس ، والجمال والفرح ، كما تعطيهم البازلاء الخضراء .

ثم يضيف قائلاً

بوسعنا أن نترك السماء بلا تردد للملائكة والطيور .

والنزعة الحلولية المشيحانية نسبة إلى الماشيح ، وهو المسيح المخلص اليهودى واضحة فى هذه الأبيات . فالأرض هى مصدر كل القيم المادية والمعنوية ، وثمة نزوع نحو الفردوس الأراضى ونهاية التاريخ . وتتضح نفس الحلولية فى أفكار هاينى السياسية . فقد كان ثوريًا وارتبط اسمه بعض الوقت بالسان سيمونية (التى أسماها «المسيحية الجديدة» ) . ورحَّب بثورة ١٨٣٠م فى فرنسا (واستقر فى باريس) . ومن هنا بدأت عداوته للمسيحيين ، بل لكل الأديان بما فى ذلك اليهودية ، فقد كان



obeikandl.com

يكرهها بعمق . وقد كتب مرة يقول إنه يوجد أمراض ثلاثة شريرة : **الفقر والألم واليهودية** . بل كان يعتبر اليهودية قوة معادية للإنسانية ، فهى «مصيبة وليست دينًا» ، على حد قوله . ورغم احتقاره لليهودية الحاخامية ، أى الأرثوذكسية ، فإنه كان يحتقر أيضًا اليهودية الإصلاحية التى ستقضى على اليهود .

وفى عام ١٨٤٧م أصيب هاينى بمرض فى عموده الفقرى بسبب أحد الأمراض السرية ، وهو ما أقعده فى الفراش . وهكذا أصبح شاعر المادة يعيش فى «مقبرة المادة» على حد قوله . ولا ندرى هل هذا هو الذى أدى به إلى إعادة النظر فى حلوليته الإلحادية ؟ إذ بدأ يُعبِّر عن مخاوفه من أن الشعب قد يتحوَّل إلى غوغاء يعبد المادة .

وواكبت ذلك مراجعة لموقفه من كانط ، إذ اكتشف أن كانط تَرك مسألة الإله دون اتخاذ قرار ، أى أنه لم يَعُد كانط الملحد الذى بشَّر به هاينى من قبل . وعبَّر هاينى عن احتقاره لفلسفة هيجل التى أشار إليها بأنها «جدلية برلين العنكبوتية» التى لا يمكنها أن تقتل قطاً أو إلهًا . أما البروتستانتية التى كان يراها فى الماضى بداية الإلحاد فقد أصبحت حينئذ بداية الإيمان ، وأعلن تراجُعه عن عملية التسوية الحلولية بين الإنسان والطبيعة ، وبدأ يحن إلى اليهودية كجزء من حنينه الدينى العام . كما كان يوقع خطاباته برسم نجمة دواد السداسية . وقد ازداد صيت هاينى ذيوعًا بعد موته ، ولحَّن شوبرت وشوبان وبرامز قصائده .

والحديث عن البُعْد اليهودى فى شعر هاينى سيكون حديثًا عن أمور هامشية ليس لها مقدرة تفسيرية . إذ أن القضية الكبرى فى حياته هى

نفسها القضية الكبرى التى شغلت المفكرين فى عصره وهى قضية الحلولية . ولذا فمحاولة فهم رؤية هاينى وأشعاره فى إطار يهودى لن تفيد كثيرًا ، فمثل هذا الإطار قد يُفسر لنا تطرفه الحلولى المشيحانى وعلمانيته الشرسة فى المرحلة الأولى ، ولكنه لن يُفسِّر لنا جوهر الإشكالية ، ولذا سيكون الإطار الألمانى الغربى هو الأجدى والأكثر تفسيرية .

**فرانز كافكا (١٨٨٣م - ١٩٢٤م) :**

روائى ألمانى يهودى ، وُلد ونشأ فى تشيكوسلوفاكيا لأسرة يهودية مندمجة . درس القانون وعمل فى أحد مكاتب المحاماة ، ثم فى شركة تأمين تابعة للحكومة ، ولذلك فإنه لم يكن يكتب إلا فى أوقات فراغه. كان أبوه شخصية متسلطة تركت أثراً عميقاً فيه . وكان كافكا يعانى طيلة حياته من الصداع النصفى والأرق . وتم تشخيص مرضه فى عام ١٩١٧م على أنه السل ، فقضى بقية حياته فى مصحة . وكان كافكا قد عهد بمخطوطاته لصديقه وكاتب سيرته ماكس برود ، ولكنه أوصى وهو على فراش الموت بأن تُحرق أعماله بعد وفاته ، ولكن برود لم يُنفِّذ رغبته .

وكثيرًا ما تُطرح قضية يهودية كافكا : فهناك من يرى أنه كان يهوديًا بل وصهيونيًا حتى النخاع ، وهناك من يذهب إلى أنه كان غير مكترث بيهوديته بل معاديًا للصهيونية ، ويورد كل فريق من الشواهد

ما يدل على صدق رؤيته . كما أن هناك تناقضًا عميقًا بين مذكراته من ناحية ورواياته من ناحية أخرى . ففى المذكـــرات اهتمـــام شـــديد بالموضوع اليهودى ، على عكس رواياته التى يلتزم فيها الصمت حياله، وهناك ، فى المذكرات ، إشارات إلى المدينة اليهودية القديمـــة والجيتـــو والمشروع الاستيطانى الصهيونى ( بل قيل إن كافكا حضر أحد المؤتمرات الصهيونية) . أما رواياته فلا تكاد تشير إلى الموضوع اليهودى ، ففـــى رواية أمريكا (١٩٢٧م) توجد شخصيات من كل الجنســيات (ألمـــان مجريون وأيرلنديون وفرنسيون وروس وسلاف وإيطاليون) ولا يوجـــد سوى يهودى واحد . ونعرف أنه يهودى مـــن اسمـــه ، إذ لا تحمـــل شخصيته أية سمات من تلك التى تُسمَّى «يهودية» . ومع هذا ، فإننـــا لا نعدم من يُقدم قراءة صهيونية لأعماله . ففى دراسة للكاتب العـــربى كاظم سعد الدين بعنوان «حل رموز كافكا الصهيونيـــة» ، يذهـــب الكاتب إلى أن رواية المحاكمة (١٩٢٥م) تسعى إلى كشف فســـاد دار الحاخامية ، سليلة السنهدرين ، أى المجمع الدينى الأعلى . ورواية المسخ أو التحول (١٩٢٧م) إنما تشير إلى التاجر اليهودى المتحول . والقلعـــة (١٩٢٦م) هى حصن صهيون ، وترمز وظيفة المسَّاح إلى الحياة الدنيـــا لليهود ، كما تشير إلى ضرورة معرفة قوانينها وعاداتها وإيجاد نوع مـــن العلاقة الجيدة بينها وبين القلعة التى ترمز إلى السلطة الدينية اليهوديـــة العليا . ويرى كاظم سعد الدين أن كافكا أسقط رمز سور الصين على حدود الدولة المرتقبة ، وأراد أن يقول أن سور الصين سيُشـــكِّل لأول

مرة فى تاريخ العالم أساسًا راسخًا لبرج بابل جديد.. وأن بدو الشمال هم الشعب العربى ، وأن أبواب الهند هى أبواب فلسطين ، وسيف الملك هى سيف داود .

ويشير الكاتب أيضاً إلى أن كافكا عارض اندماج اليهود فى الشعوب الأخرى ذاهباً إلى أن المدينة اليهودية القديمة غير الصحية، أى الجيتو، حقيقة أكثر رسوخاً بالنسبة إلى اليهود من الشوارع العريضة للمدينة المبنية حديثًا ويشير أيضًا إلى أن كافكا ذكر أن أرض كنعان هى أرض الأمل الوحيد .

وأوضحت الدكتورة بديعة أمين فى كتابها هل ينبغى إحراق كافكا ؟ أن هذين الاقتباسين الأخيرين قد نُزعا من سياقهما ، إذ يتبع الاقتباس الأول الخاص بالجيتو عبارة «إننا لسنا سوى شبح زال ، أما أرض كنعان فهى ليست بأرض على الإطلاق ، وإنما حلم وحسب» . ووصفت الدكتورة بديعة تفسيرات الأستاذ كاظم سعد الدين بأنه استنبطها من الكتب الدينية والتاريخية ، ثم اعتبرها معادلات موضوعية مادية حسيَّة للرمز الكافكاوى استناداً إلى بعض العوامل الخارجة عن كتابات كافكا. ثم أضافت الدكتورة تحليلها لرؤية كافكا مبيِّنة استحالة أن يتبنى مثل هذا الكاتب رؤية صهيونية ، فموضوعات أدبه هى الإحساس العميق بالغربة والعزلة الروحية حتى وسط الأهل والأصدقاء ، والوعى بالذات وما يؤدى إليه هذا الوعى ، وعلاقة الإنسان بالسلطة وبيروقراطيتها القاتلة ، والانسحاب والانسلاخ الاجتماعيان ، واختفاء الهدف والإحساس

بالهزيمة . وقد عبر كافكا عن هذه الموضوعات بأسلوب غامض مغلق لا يسمح بتسرب قطرة ضوء . والواقع أن أدبا يتناول مثل هذه الموضوعات بمثل هذا الأسلوب لا يمكن أن يكون صهيونيا، لأن الأدب الصهيوني أداة أيديولوجية ووسيلة إلى هدف واضح بطريقة واضحة ، ولذا فإن مثل هذا الأدب لابد أن يتسم بالوضوح والإيجابية . كما أن الأدب الصهيوني يهدف إلى الدفاع عما يسمى حقوق الشعب اليهودى الذى يحمل خصائص عرقية وإثنية خاصة ثابتة عبر الزمان والمكان ، بل ويركز على تقديس هذا الشعب . وغنى عن القول أن رؤية كافكا للطبيعة البشرية مختلفة تماما ، فهى بالنسبة له طبيعة متقلبة كالغبار غير مستقرة ولا تحتمل أية قيود . كما أن اليهودى بالنسبة له شخصية هامشية تقف بين عوالم مختلفة ولا تنتمى إلى أى منها. أما كافكا ذاته فهو يؤكد عدم انتمائه إلى أى عالم ، وهو لا يخلع القداسة على أحد ، يهوديا كان أو غير يهودى ، فعالمه عالم حداثى تماما ، خال من أية مطلقات أو مرجعيات أو مقدسات .

هذا فيما يتصل بموقف كافكا من الصهيونية . ولكن ماذا عن المضمون اليهودى فى أدبه ؟ إن مثل هذه المسألة يمكن أن تحسم إن قبلنا التحليل السياسى والمباشر للمضون ثم أضفنا إليه مستويات أكثر عمقا ، ولعلنا لو قبلنا صيغة تفسيرية مركبة تقبل المستويات المتناقضة المختلفة ، لفهمنا كافكا حق الفهم .

ولنبدأ بكافكا الإنسان والكاتب . كان كافكا يهوديا مندمجا ، ولذا فإنه لم يكن فى البداية مدركا للكتابات الدينية اليهودية أو

كتابات المؤلفين اليهود ، ولكنه بالتدريج بدأ يهتم بالموضوع اليهودى . وهو أمر طرحته عليه عدة عناصر من أهمها أنه رغم الرغبة الصادقة لقطاعات كبيرة من يهود وسط أوربا فى الاندماج ، بل والانصهار فى الحضارة الغربية ، ورغم محاولة كثير من المجتمعات قبولهم ودمجهم وصهرهم ، إلا أن عملية مثل هذه لم يكن من الممكن أن تتم فى جيل واحد أو جيلين ، فقد كان الجيل الأول والثانى من اليهود المندمجين يشعر أنه فقد الجيتو والأمن الذى كان اليهودى يشعر به داخله ، بل ووجد نفسه فى عالم معاد له . ولا شك فى أن حركات معاداة اليهود التى تصاعد نفوذها وازدادت شعبيتها عمَّقت هذا الإحساس لدى كثير من المثقفين اليهود . كما أن هجرة يهود اليديشية (أى يهود شرق أوربا) ، الذين كان يتزايد عددهم داخل الإمبراطورية النمساوية المجرية ، ساهم فى خلخلة وضع اليهود المندمجين ، وهو الوضع الذى فرض على يهودى مندمج مثل هرتزل أن يبحث عن حل للمسألة اليهودية ، أى مسألة يهود شرق أوربا ، وأن يصوغ الحل الصهيونى . ويعنى هذا أن الموضوع اليهودى قد فُرض على كافكا فرضًا . فبدأ يقرأ فى الكتابات الدينية اليهودية وفى كتابات المؤلفين اليهود العلمانيين . قرأ فى كُتب القبَّالاه والحسيدية ، ودرس العبرية ، وقرأ كتابات صهيونية أو شبه صهيونية (بل يُقال إنه كتب دراسات يُفهم منها تأييده للمشروع الاستيطانى الصهيونى) .

وعلى أية حال ، فإن المصادر الغربية لفكره كانت أكثر تنوعاً وعمقاً وشمولاً ، فقد تأثر بكلٍّ من كيركجارد ودوستويفسكى وفلوبير وتوماس

مان وهيس وجوركى ، وبالفكر الاشتراكى والفوضوى فى عصره .ويبدو أنه كان معاديا للرأسمالية ولاقتصاديات السوق التى تحول الإنسان إلى شىء .

وهذه الازدواجية (اليهودى / غير اليهودى) تعبر عن نفسها فى مختلف المستويات . ولنأخذ موقفه من الدين ، من الواضح أن كافكا كان رافضا للدين كحل لمشكلة المعنى ، ومن هنا كانت حداثة رواياته وإحساسه بالضياع الشامل . وهو فى هذا ، يعبر عن موقف كثير من يهود عصره ، حيث كانت اليهودية الحاخامية تعانى من أزمتها العميقة ، إذ أخذت تحل محلها العقائد العلمانية المختلفة ، مثل الصهيونية والداروينية والماركسية والنازية . ولكن موقف كافكا فى هذا كان لا يختلف كثيرا عن موقف كثير من المثقفين الغربيين الذين ابتعدوا عن عقيدتهم وعن مجتمعهم بسبب تصاعد معدلات العلمنة وبسبب تآكل المجتمع التقليدى . لقد اندفعوا نحو المجتمع الجديد ، ولكنهم لم يجدوا فيه المعنى ، و لم تتحقق لهم الطمأنينة بل إن أزمة اليهودية الحاخامية، لم تكن إلا جزءا من أزمة العقيدة الدينية فى الحضارة الغربية ، كما أن كلتا الأزمتين نتاج حركيات واحدة : الانتقال من مجتمع تقليدى إلى مجتمع حديث ، ولكنه انتقال لا يأتى بالسعادة ، وإنما يؤدى إلى عدم الاستقرار والغربة . ومعنى هذا أن الظاهرة نفسها يمكن أن تفسر على أساس يهودى خاص ، وعلى أساس غربى عام ، ثم نكتشف أن كلا من الأساسين اليهودى الخاص والغربى العام هما شىء واحد .

ولكن موقف كافكا الدينى يتجاوز مجرد الرفض ، ذلك أن كافكا كان يمارس إيماناً دينياً عميقاً من نوع خاص . فكان يرى أن فعل الكينونة لا يعنى الوجود المادى وحسب ، وإنما يعنى أيضاً الانتماء إلى الإله ، فالإله كامن فى أعماق الذات البشرية . وهذا الجزء فى الإنسان هو الجزء غير القابل للدمار ، وهو ذاته عالم المُطلق والكمال ، المتجرد من الخطيئة والنقص ، وهو العالم الذى يُسمِّيه المومن «الإله» . ولكن قُرْب الإنسان من الإله يعنى أن يعيش حياة صحيحة ، وهذا الموقف ينتج عنه رفض العالم المحسوس (عالم السببية والمادة ) . وإذا كان الموقف السابق الرافض للدين يعبِّر عن أزمة اليهودية الحاخامية الخاصة وأزمة المعنى فى المجتمع الغربى ككل ، فإن هذا النوع من الإيمان الدينى يعبر هو الآخر عن رؤيتين متشابهتين : إحداهما يهودية (القبَّالاه ) ، والأخرى غربية عامة ( الغنوصية ) . وكلتا الرؤيتين تطرح فكرة الإله الخفى (الديوس ابسكوندیتويس فى الغنوصية ، والإين سوف فى القبَّالاه) الذى تبعثرت شراراته ، فاختلطت الشرارات بالمادة بحيث أصبح الإله موجوداً داخل البشر ، مع أنه بعيد عنهم تماماً . ويحاول الإنسان جاهداً عبر حياته أن يتجه نحو الالتحام به والعودة إليه ، ولكنها عودة أصبحت مستحيلة (ولذا يستحيل فهم «المحاكمة» ، كما يستحيل دخول «القلعة» ) ، والتراث القبالى والغنوصى تراث منتشر فى الحضارة الغربية بين اليهود وغير اليهود . فهناك قبالاة يهودية ، وهناك قبالاة مسيحية (من أصل يهودى) ، وهناك غنوصية يهودية وأخرى مسيحية .

ومن ثم ، فإن من الممكن تفسير هذا الجانب أيضا على أساس يهودى خاص وأساس غير يهودى أو غربى عام .

وسنلاحظ نفس الشيء فى أهم جوانب روايات كافكا ، أى شخصياتها الأساسية . فأبطال كافكا رجال بلا تاريخ ، رجال يعيشون خارج الزمان والمكان فى فراغ لا اسم له، وفى زمان لا يمر به تاريخ ، يوجدون فى كل الأوطان ولا وطن لهم ، شخصيات تبحث عن شيء ما لا تعرف هويته ، ويسقطون ضحايا شر لا يفهمون كنهه .

وتبدأ رواياته عادة خارج نطاق التجربة اليومية . فافتتاحية المحاكمة تقدم لنا البطل جوزيف ك . وقد قدم للمحاكمة بسبب جريمة لا يعرف ما هى ، كما أنه لا يعرف شيئا عن طبيعة هيئة المحكمة التى تقرر إعدامه ، وتنتهى المحاكمة نهاية عبثية . وفى الروايات الأخرى لكافكا ، لا توجد نهاية على الإطلاق ، ففى القلعة مثلا لا يصل البطل إلى أى هدف . ويمكن تفسير هذه العزلة من منظور يهودى خاص ، فشخصيات كافكا ليسوا بعيدين عن تجربته كيهودى مندمج ، فهم أيضا تركوا حيز الشتل والزمان الشعائرى اليهودى ودخلوا فى وجود بلا زمان ولا مكان ، وهى حالة الدياسبورا بلا خلاص ، أو المصير اليهودى الذى يلحق باليهود الأذى دون ذنب اقترفوه ، فكأن حالة النفى والعزلة هى مصير دائم بالنسبة إليهم .

ولكن يمكن القول بأن مأساة أبطال كافكا هى أيضا مأساة كل الشخصيات فى الأدب الغربى الحديث التى تشعر بحالة النفى والغربة ،

فهى شخصيات فقدت الإيمان ، إذ وجدت نفسها فى مجتمع متناثر ذرى لا يربط أجزاءه رابط ، ومجتمع تعاقدى ، الإنسان فيه منفىٌ دائماً ، مجتمع ازدادت فيه معدلات الترشيد حتى أصبح كل شىء آلياً أو شيئاً شبه آلىّ تم التحكم فيه ، ولكنه ترشيد إجرائى لا هدف له. ومن ثم ، ورغم تزايد تحكم الإنسان ، إلا أنه يشعر بإحساس عميق بالاختناق وبأنه لا حول له ولا قوة .

ويمكننا القول بأن الموضوعات الأساسية فى أدب كافكا هى موضوعات أساسية متواترة فى الأدب الغربى الحديث بصفة عامة ، وبالتالى فإن أصولها غربية ، ولا يمكن فهمها إلا على مستوى الحضارة الغربية ككل . ولكننا فى حالة كاتب من أصل يهودى فَقَدَ يهوديته مثل كافكا ، نجد أن وضعه هذا يخلق عنده قابلية غير عادية لاكتشاف هذه الموضوعات وتطويرها ، فهى تكتسب حده خاصة فى أدبه ، وبعبارة أخرى ، فإن يهودية كافكا ليست مصدر الرؤية العبثية عنده (فهى رؤية تضرب بجذورها فى حضارته الغربية) والأدب الغربى . ومع هذا فانتماؤه اليهودى يُعمِّق هذه العبثية ويزيد من حدَّتها .

وقد ترك كافكا أثراً عميقاً للغاية فى الأدب الغربى الحديث (مسرح العبث) . ويُستخدمَ مصطلح «كافكارى» أو «كافكوى» لوصف الإحساس بالضياع والسقوط فى شبكة متداخلة من الأحداث العبثية . ولعل عمق أثره على الحضارة الغربية ، يُبيِّن مدى تجذره فى التشكيل الحضارى الغربى كما يبين مدى هامشية خصوصيته اليهودية ،

اللهم إلا إذا كانت هذه اليهودية نفسها تعبيرا عن شيء جوهـــرى فى الحضارة الغربية .

**إسحق بابل (١٨٩٤م - ١٩٤١م) :**

كاتب قصة قصيرة ومسرحى سوفيتى يهودى ، ولد فى مدينة أوديسا ونشأ فيها . وكانت أوديسا مركزا كوزموبوليتانيا، إذا كانت تعيـــش فيها جماعات ذات خلفيات ثقافية وإثنية مختلفة (ولذا كانت المســـارح تعرض المسرحية الواحدة بثلاث أو أربع لغات مختلفة) ، كما كـــانت مركزا للدراسات العبرية واليديشية ومركزا لحركة التنويـــر اليهودية والحركة الصهيونية والحركات الاشتراكية اليهودية .

ولد بابل لعائلة مندمجة تتحدث اليديشية التى تعد لغته الأولى، وتلقى تعليما خاصا فى منـــزله حتى سن السادسة عشرة، حيث تعلـــم مـــواد دينية ودنيوية عديدة منها العبرية والعهد القديم والتلمـــود ، ثم التحـــق بمدرسة تجارية فى أوديسا . وبعد عـــام ١٩١٥ م ، ذهـــب بـــابل إلى بتروجراد (سان بطرسبرج فيما قبل ولينيجراد فيما بعد) متخفيا، حيـث كان محظورا على أعضاء الجماعة اليهودية التواجد فيها دون تصريـــح ، لأنها كانت تقع خارج منطقة الاستطيان على عكس أوديسا .

وقد نشرت أول أعماله الأدبية فى بتروجراد ، قبل الثورة ، فى مجلـــة أدبية كان يرأس تحريرها ماكسيم جوركى . وبعـــد انـــدلاع الثـــورة البلشفية انضم بابل لقواتها . فعمل فى قوات الأمن ، وفى قوميســـــارية التعليم ، وفى مهمـــات التموين ، أى فى مصادرة المحاصيل فى الريف ،

وفى الجيش البلشفى ضد القوات الروسية البيضاء المعادية للثورة . كما خدم فى فرقة الفرسان الأولى التى كانت تضم المحاربين القوزاق وكانت تحارب على الجبهة البولندية .

وهذه واحدة من مفارقات عديدة فى حياة بابل ، فالقوزاق هم أعداء الجماعة اليهودية التقليديون ، ومن صفوفهم جاء شيلنكى الذى قاد ثورة شعبية أوكرانية ضد الإقطاع الاستيطان البولندى وممثليه من يهود الأرندا . كما كانت الدولة القيصرية تجند القوزاق فى قوات الأمن الداخلى لقمع المتظاهرين ولفرض الهيمنة الروسية على الشعوب والأقليات التى كانت تضمها الإمبراطورية القيصرية ومن بينهم الجماعات اليهودية . ورغم كل هذا ، انضم بابل اليهودى إلى القوزاق أعداء اليهود ، وهم فرسان محاربون شرسون من أصل قبلى يحملون سيوفهم واسلحتهم ، وهو مثقف من المدينة يرتدى نظارة ويحمل كتبه ولا يجيد ركوب الخيل . وتستمر المفارقات فى حياة بابل ، فقد نشأ نشأة دينية أرثوذكسية حامدة ، ثم تبنى عقيدة علمانية لا تقل عنها جمودًا . وقد دافع بابل عن النظام السوفيتى ، وسقط ضحية هذا النظام فى نهاية الأمر .

كتب بابل فى هذه الفترة الفرسان الحمر (١٩٢٦م) وهو كتاب يتناول تجربته مع المحاربين القوزاق من الفرقة الأولى الحمراء .

واتهمه قائد الفرقة الأولى بأنه شوه الحقائق وأساء إلى صورة الفرقة .

وفى عام ١٩٣١م ، كتب بابل رواية أو مجموعة من القصص عن عملية فرض الصيغة الجماعية على الإنتاج الزراعى ، وظهر فصل منها ثم توقفت لأنها كانت متناقضة مع خط الحزب .

سمح له عام ١٩٢٨م بزيارة زوجته وابنته اللتين كانتا قد هاجرتا إلى باريس . ثم بدأت فترة الإرهاب الستالينية بعد ذلك فأصبح بابل ، حسب قول أحد النقاد ، «سيد الصمت» . وبموت ماكسيم جوركى (١٩٣٦م) ، فقد بابل أحد أهم أصدقائه ، إذ كان يزوده بالحماية . وبالفعل ، قبض عليه عام ١٩٣٩م واختفى على الفور . ولا تعرف الأسباب التى أدت إلى القبض عليه ولكن ثمة نظرية تذهب إلى أنها لم تكن سياسية وأنه ألقى القبض عليه بسبب علاقة غرامية بينه وبين زوجة رئيس البوليس السرى .

ويُعدّ بابل من أهم الكتاب الروس ، فرغم أن لغته الأولى كما اسلفنا هى اليديشية ، ورغم أنه كتب أولى رواياته بالفرنسية ، إلا أنه امتلك ناصية اللغة الروسية وأصبح من أحسن كتابها . ورغم اختياره الروسية لغة للتعبير ، فقد ظل الموضوع اليهودى موضوعا أساسيا ظاهرا وكامنا فى أعماله . ولم يكن بابل منشغلا بأن يحدد موقفا مع اليهود أو ضدهم ، فقد أدرك أن يهوديته (أو بقاياها) هى معطى أو ميراث يحدد سلوكه كمواطن فى عصر الثورة وهو ما يخلق التناقضات والمفارقات العديدة فى حياته .[1]

ولعل هذا هو سر عظمة أعماله وسر إنسانيتها ، فاليهودية هنا ليست نسقا مغلقا مكتفيا بذاته يقسم العالم إلى يهود وأغيار ثم يستبعد الأغيار باعتبارهم الأشرار ، وإنما هى بعد أساسى فى بنية إنسانية

مأساوية كوميدية ذات دلالة إنسانية عامة . ومأساة اليهودى فى رواياته ليست مأساه يهودية خاصة ، وإنما هى مأساة إنسان يسقط صريع عمليتى الثورة والتحديث رغم إيمانه بهما وتحمسه لهما وانضمامه لصفوفهما . وهذا نمط إنسانى عام يتجاوز يهودية اليهودى وكل الانتماءات الإثنية ، ويعبر عن الصراع القائم بين الجديد والقديم وبين المجتمع التقليدى والحديث ، فالمرجعية النهائية هنا هى إنسانية البشر المشتركة ، وكذلك أفراحهم وأتراحهم .

ولم يكن بابل كاتبا غزير الإنتاج ، فسمعته الأدبية تستند إلى مجموعتين أدبيتين : الفرسان الحمر (١٩٢٦م) ، وروايات أوديسا (١٩٢٧م) . وقد تأثر أسلوبه الروائى بفلوبير وموباسان ، فهو يجيد رواية الحكايات ، حيث تنكشف الشخصيات المتنوعة من خلال الحبكة نفسها . وعادة ما يكون الراوى فى القصة هو الشخصية الأساسية يحكى روايته بلغته سواء كانت لهجة فلاحية أو رطانة جنود أو لغة مواطن يهودى من أوديسا يتحدث الروسية بلكنة يديشية .

والموضوع الأساسى فى روايات بابل هو صدى لواحد من أهم الموضوعات فى الأدب الغربى الحديث : تمجيد الإنسان الطبيعى أو النبيل المتوحش . ولكن الموضوع يأخذ شكلاً خاصًا فى أدب بابل ، بل يكتسب أبعادا نيتشوية واضحة، وهو فى هذا لا يختلف كثيرا عن كثير من الأدباء اليهود فى عصره حيث اكتسحتهم النيتشوية مثل آحادهعام فيلسوف أوديسا وحاخامها اللا أدرى . فاليهودى التقليدى فى أدب بابل هو ممثل أخلاق الضعفاء ، المثقل بعبء التاريخ وميراثه ،

يود أن يتحرر من كل هذا ويصبح مثل الوثنيين ممثلى أخلاق الأقوياء الذين يتسمون بالقوة الجسدية الخارقة وبغياب الحس الخلقى والمقدرة على الحياة فى عالم الحس المباشر . ولعل أحسن مثل على ذلك ، حسب رؤية بابل ، المحاربون القوزاق . ومما يحسن ذكره أن لهذا الموضوع صدى فى الأدب الصهيونى ، فالصابرا أو العبرانى الجديد هو هذا الوثنى النيتشوى غير المثقل بعبء التاريخ ، والوثنى الجديد قادر على القيام بأفظع الأفعال وأبسطها ؛ قتل الآخرين . وفى إحدى قصص بابل ، لا يقوى بطلها على أن يجهز على أحد الرفاق الجرحى ، ويصلى للإله ليمنحه المقدرة على القتال . وفى قصة أخرى يحاول البطل أن ينضم إلى جماعة القوزاق ، ولذا كان عليه أن يقتل إوزة بطريقة شرسة وينجح فى ذلك ، ولكنه حينما يأوى إلى فراشه يبدأ ضميره (اليهودى) فى تأنيبه على فعلته هذه .

وإلى جانب ممثلى أخلاق الضعفاء ، يوجد يهود آخرون يعيشون فى عالم الحس خارج نطاق قيم الخير والشر ، أبطال لا علاقة لهم باليهود المساكين الذين صورهم الأدب اليديشى ، ولا بالحالمين المثاليين فى الأدب ذى التوجه الصهيونى . أما أبطال بابل فهم ، على حد قول أحد النقاد ، مثل الخمرة الحمراء الرديئة المليئة بالفقاقيع ؛ فمنهم امرأة يهودية ضخمة تدير بؤرة للصوص وماخورا للدعارة ، ومنهم شحاذون ذو ذقون مدببة يحرسون مقابر اليهود ويتحدثون عن عبث الوجود الإنسانى، ومنهم رؤساء عصابات يدخلون الرعب على قلوب

تجار أوديسا وشرطييها ، ومنهم ذابحون شرعيون وحسيديون بولنديون . هذا الجانب من أدب بابل يعبر عن وعيه بالجانب الحسى لعالم يهود البديشية ، ولكنه عالم آخذ فى الاختفاء بسبب تصاعد معدلات العلمنة والتحديث ، خصوصا بعد الثورة . ومن هنا يتحول أدب بابل إلى مرثية اختفاء هذا العالم ، ولكنها مرثية كوميدية . وهذه النغمة هى التى تنقذه إلى حد ما من العدمية التى تسم كثيرا من الأعمال الحداثية وتحل محلها شكلا بدائيا مباشرا من تأكيد الحياة . فعلى سبيل المثال ، هناك بيت للعجزة اليهود يحاول أن يضمن لنفسه الاستمرار بأن يتحول إلى تعاونية اشتراكية للدفن ، ولكنه لا يمكنه البقاء إلا بالحفاظ على الجثمان الوحيد لديه وعدم دفنه . ومن ثم فإن أول جنازة حقيقية ستقوم بها هذه المؤسسة الاشتراكية تعنى ، فى واقع الأمر ، نهايتها . وهناك قصة أخرى عن حياة طفل يسميه أبواه الشيوعيان الملحدان «كارل» ، ولكن جديه يختتانه سرا ، ومن ثم يسمى الطفل «كارل-يانكل» (كارل-يعقوب) . وفى قصة ثالثة ، ينضم ابن أحد الحاخامات للحزب الشيوعى (رمز الجديد) ولكنه يستمر فى الحياة مع أبويه لأنه لا يريد أن يترك أمه (رمز القديم ) . وفى قصة رابعة ، يموت ابن الحاخام الشيوعى فى معركة ولكنهم (بعد موته) يجدون فى أوراقه صورة للينين وأخرى لموسى بن ميمون وقرارات للحزب الشيوعى كتب فى هوامشها أبيات شعرية بالعبرية ونص من نشيد الأنشاد مع بعض الطلقات الفارغة .

ولعل من أهم القصص التى تبيّن هذا الصراع قصة جيدالى .

وبطل القصة يهودى عجوز (صاحب محل تحف) ، وقد اعترته الدهشة والحيرة بسبب عمليات السرقة والنهب فى مدينته والتى يقوم بها الجانبان الشيوعى والمعادى للشيوعية . ولذا ، فهو يسأل : كيف يستطيع المرء إذن أن يفرق بين الثورة والثورة المضادة ؟ وهو ممن لا يقبلون الرأى الحديث القائل بأن ينبذوا كل القيم القديمة : الجيد منها والردئ . «سنقول نعم للثورة ، ولكن هل يمكن أن نقول لا لشعائر السبت ؟ » ثم تنتهى القصة باقتراح يقدمه بطل القصة لزائره الشيوعى : إن ما تحتاجه الدنيا ليس مزيداً من السياسة ، وإنما منظمة دولية للأخيار ، يعيش كل الناس فيها فى سلام ووئام .

وقد رُدَّ اعتبار بابل فى الاتحاد السوفيتى فى فترة ما بعد ستالين ونُشرت أعماله فى الستينيات . ويمكن هنا أن نثير قضية تصنيف بابل ، الذى ورد اسمه فى دليل بلاكويل للثقافة اليهودية باعتباره أديباً يهودياً. ورغم أن بابل يكتب باللغة الروسية داخل إطار الثقافة الروسية وتقاليد الرواية الروسية، ولا يمكن فهم أعماله إلا بالعودة إلى هذه التقاليد . وهو يتناول موضوعات يهودية ، ولكنها فى واقع الأمر موضوعات روسية يهودية أى إنها موضوعات تخص حياة يهود اليديشية فى روسيا بعد الثورة ، وهى موضوعات لا تُفهم هى الأخرى إلا بالعودة إلى المجتمع السوفيتى الجديد ومشاكل الشعوب والأقليات فيه . ويتسم تناول بابل لموضوعاته بالرحابة الإنسانية ، ومن ثم فإن أعماله ترقى إلى

مستوى العالمية . كل هذا يجعل تصنيفه كروائى يهودى مستحيلاً ، فمثل هذا التصنيف لا يُفسِّر إلا جوانب محدودة للغاية من أدبه .

## جيرزى كوزينسكى (١٩٣٣م - ١٩٩١م) :

كاتب أمريكى يهودى ، ولُد فى مدينة لودز فى بولندا ، وكان والده أستاذاً مرموقاً فى جامعة لودز . تعرَّض كوزينسكى ، خلال الاحتلال النازى لبولندا ، لتجارب مريرة وقاسية ، وعاش متشرداً فى الريف البولندى ، وفَقَد القدرة على النطق لمدة ٦ سنوات . وقد تركت تجاربه المؤلمة خلال فترة الحرب آثارها العميقة فى نفسيته وشخصيته ، انعكست فى كتاباته التى غلب عليها الطابع المظلم والسوداوى . وتعبِّر روايته **العصفور الملون** عن جزء كبير من هذه التجارب .

عاش كوزينسكى فى بولندا حتى عام ١٩٥٧م حيث هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية . ونال درجة الماجستير فى العلوم السياسية من جامعة لودز عام ١٩٥٣م ، ثم الماجستير فى التاريخ عام ١٩٥٥م من الجامعة نفسها ، وعمل أستاذاً فى معهد العلوم الاجتماعية والتاريخ الثقافى . وبعد هجرته إلى الولايات المتحدة ، التحق بالدراسات العليا فى جامعة كولومبيا فى الفترة بين عامى ١٩٥٨م و ١٩٦٥م . وعمل محاضراً وأستاذاً زائراً وزميلاً لعدة جامعات ولعدد من مراكز الدراسات الأمريكية المرموقة .

ولكوزينسكى مؤلفات عديدة من أهمها (**إستبس**) أى خطوات ، التى نال عنها الجائزة القومية (الأمريكية) للكتاب عام ١٩٦٩م ، ومن

أشهر أعماله أيضا أن تكون هناك Being There (١٩٧١م) الذى تحول إلى فيلم سينمائى كتب له كوزينسكى السيناريو ونال عنه عدة جوائز .

زار كوزينسكى بولندا عام ١٩٨٨م لأول مرة منذ ٣١ عاما ، وأكد خلال زيارته على العلاقات التاريخية بين البولنديين واليهود ، وأدان جميع أشكال التحيز سواء ضد البولنديين أو ضد اليهود . كما أن كوزينسكى ، الذى يترأس الصندوق الأمريكى للبحوث البولندية اليهودية ، نجح خلال زيارته هذه فى عقد اتفاق لإقامة مؤسسة للتراث البولندى اليهودى فى كازيميز ، وهو الحى اليهودى القديم فى كراكوف . وفى العام نفسه ، كان كوزينسكى قد حول شقته الصغيرة فى نيويورك إلى مقر مؤسسة «برزنس» ، وهى مؤسسة تعمل للحفاظ على مايسمى «التراث اليهودى» .

زار كوزينسكى إسرائيل فى عام ١٩٨٨م أيضا ، وأثار الدهشة والاستياء عندما دافع عن معاملة البولنديين لليهود خلال الحرب العالمية الثانية ، وهاجم فيلم «شواه» الذى يتناول أحداث الإبادة النازية (الهولوكوست) ، حيث اعتبره فيلما متحيزا وغير عادل على الإطلاق . كما أعرب عن رفضه أن يظل يعرف مدى الحياة باعتباره أحد الناجين من الإبادة النازية .

وقد تعرض كوزينسكى فى أوائل الثمانينيات إلى بعض الاتهامات التى ألقت بظلالها على سمعته الأدبية ، حيث ادعت مجلة فيليج فويس Village Voice على صفحاتها أن مساعدى كوزينسكى كتبوا أجزاء

من كتبه ، وأن أعماله الأولى المعادية للشيوعية كانت ممولة من المخابرات المركزية الأمريكية ، وانه اختلق بعض تفاصيل أحداث حياته .

وقد تركت هذه الاتهامات آثارها فى كوزينسكى ، كما أصابه الاكتئاب بعد الاستقبال الفاتر الذى قوبل به كتابه الأخير **ناسك شارع ٦٩** (١٩٨٨م) الذى كان بمثابة سيرة ذاتية فى قالب روائى خيالى .

وكان كوزينسكى يعانى كذلك من تدهور صحته ، الأمر الذى كان يعوقه عن العمل . ولعل كل هذه الأسباب مجتمعة هى التى أدت إلى انتحاره باستخدام أحد الأساليب التى أوصت بها جمعية هيملوك (السم)، وهى إحدى الجمعيات التى تدعو إلى القتل الرحيم لمن يشكو مرضا عضالا ، وهو نفسه الأسلوب الذى استخدمه عالم النفس الشهير برونو بتلهايم للانتحار قبل كوزينسكى بعام واحد .

## فيليب روث (١٩٣٣م) :

أهم روائى أمريكى يهودى ، ولد ونشأ فى مدينة نيوآرك التابعة لولاية نيوجرسى لأسرة أمريكية يهودية بورجوازية مندمجة . وتدور قصصه حول الصراع الحاد الذى يدور داخل الأمريكيين اليهود بين ميراثهم اليهودى (اليديشى) من جهة ، وجاذبية الحضارة الأمريكية (المسيحية) والعلمانية التى يعيشون فيها من جهة أخرى . أثارت أعمال روث جدلا كبيرا ، ولعل هذا يعود إلى صراحته غير العادية وإلى أن شخصياته اليهودية شخصيات كوميدية مريضة تكشف عن نفسها

من خلال علاقات جنسية شرعية وغير شرعية ، صحيحة ومرضية . وقد وصفه البعض بأنه يهودى كاره لنفسه ولليهوديته .

ومن أهم قصصه **المدافع عن العقيدة** و**تحوّل اليهود عن عقيدتهم** (١٩٦٢م) ، و**درس التشريع** (١٩٨٣م) حيث يحاول روث أن يتكشف التناقض الكامن فى بعض التعريفات الأمريكية للهوية اليهودية ، ويُبيِّن التضمينات الكوميدية الكامنة فى مفاهيم مثل الشعب المختار والشعب المقدَّس ، كما يكشف التناقض الكامن فى الانشغال الزائد لدى اليهود بما حاق بهم من عذاب فى الماضى وحساسيتهم الزائدة ، بينما يعيشون الآن فى مجتمع علمانى لا يكترث بهم ولا يُكِّن لهم حباً ولا كُرهاً . ويتناول روث عادةً علاقات الأبناء بآبائهم ، خصوصاً الأمهات ، فموضوع الأم اليهودية شديدة الطموح والتسلط موضوع أساسى فى رواياته . كما أن اهتمامه ينصرف كذلك إلى علاقة الرجال بالمرأة . إن الأنثى ، خصوصاً اليهودية ، متسلطة ، زوجة كانت أم عشيقة ، مخططاتها مختلفة عن مخططات الذكر . وهو يطلق على مثل هذه الأنثى «الأميرة الأمريكية اليهودية» ، وقد أصبح هذا المصطلح شائعاً فى الخطاب الأمريكى ويحمل معنى قدحياً . وفى مقابل ذلك ، تشير روايات روث إلى الشيكسا ، أى الأنثى غير اليهودية ، التى تشكل جاذبية خاصة لليهودى . وأهم الروايات التى تتناول هذا الموضوع هى **شكوى بورتنوى** (١٩٦٩م) التى تأخذ شكل اعتراف رجل يهودى يبلغ من العمر ٣٣ عاماً لمحلله النفسى .

وتعد رواية **شكوى بورتنوى** ذات أهمية خاصة من منظـــور هـــذا الكاتب ، إذ إن بطلها يتنقل بين الولايـــات المتحـــدة (الدياســـبورا) وإسرائيل . وفى الولايات المتحدة ، يكتشف أن هويته اليهودية إنما هـــى مصدر آلام له وليس لها قوام أو مضمـــون واضـــح، وتدفـــع بـــه إلى ما يسميه روث المستنقع الأوديـــى : أى الاهتمام المرضى بعلاقة الابـــن اليهودى بأمه اليهودية ، وإحساسه العميق بالذنب حينما تتجه عواطفـــه نحو الشيكسا من بنات الواسب (Wasp) ، أى الفتاة البيضـــاء (عـــادة شقراء) من أصل أنجلو ساكسونى بروتستانتى .

ولا يختلف الأمر كثيرا عندما يذهب البطل إلى إســـرائيل ، فإنـــه لا يعجبه مايرى ، إذ لا يجد ذاته الأمريكية اليهودية المركبة هناك .

ولذا ، فهو حينما يقابل فتاتين إسرائيليتين فى أرض الميعاد ، تنتـــهى العلاقة نهاية مأساوية ملهاوية ، إذ تسأله الأولى ، وهى ملازم فى الجيش الإسرائيلى ، إن كان يفضـــل الجرارات أو البلدوزرات أو الدبابـــات . أما الثانية (ناعومى) ، فهى إســـرائيلية حقـــة ، ولـــدت فى إحـــدى المستعمرات بالقرب من الحدود اللبنانية ، وأتمت خدمتـــها فى الجيـــش الإسرائيلى ، ثم استقرت فى إحدى المستعمرات الواقعة علـــى الحـــدود السورية ، وهى لا تكف عن الثرثرة عن الاشتراكية وعن الفساد الـــذى يسود المجتمع الأمريكى .

وقد لقنته هذه الفتاة المحاربة درسًا فى التاريخ اليهودى من وجهة نظر صهيونية ، فأخذت تتحسر على تلك القرون الطويلة التى عاشها اليهود بلا ديار ولا مأوى ، والتى أفرزت أمثاله من الرجال «الخائفين المخنثين الذين لا يعرفون قدر أنفسهم ، والذين أفسدهم الحياة فى عالم الأغيار .

بل إنها تلومه على ماحدث لليهود فى ألمانيا النازية »فيهود الشتات ، بسلبيتهم ، هم الذين ساروا بالملايين إلى غرف الغاز دون أن يرفعوا يداً ضد مضطهديهم ... الشتات !

إن الكلمة ذاتها تثير حنقى . ولا غرو أن بورتنوى لم يوفق بعد هذا فى العثور على فتاة أحلامه فى إسرائيل .

وتعكس روايات روث واقع يهود الولايات المتحدة الأمريكية الذين يتمتعون بمعدلات عالية من الاندماج (أو يعانون منها حسب الرؤية الصهيونية) . ولذا ، فإن رؤيتهم للواقع ، وأحلامهم ، وطموحاتهم ، لا تختلف كثيراً عن رؤية وأحلام وطموحات أعضاء الأغلبية ، فحلمهم هو الحلم الأمريكى . وهذا أمر مُتوقّع من أبناء مهاجرى اليديشية الذين تركوا أوطانهم واستقروا فى أمريكا ليحققوا الحراك الاجتماعى ، وإذا وجد الشاب اليهودى أن الشيكسا ذات جاذبية خاصة فهذا أمر منطقى لأقصى حد .

وفى رواياته الأخيرة ، بدأ روث يتجه نحو داخله باعتبار أنه فنان يهتم بعملية الإبداع بشكل خاص ، وذلك فى روايات مثل **حياتى كرجل** (١٩٧٤م) ، **والكاتب الشبح** (أى الذى يصوغ كتابة ما يكتبه الآخرون صياغة أدبية) عام ١٩٧٩م ، **وزوكرمان طليقا** (عام ١٩٨١م) وتدور روايتا الكاتب الشبح ، وزوكرمان طليقا حول حياة الروائى زوكرمان الذى تشبه حياته حياة روث نفسه ، وهى حياة مليئة بالمتناقضات . إنه متعطش للنجاح ولكنه لا يود أن يطارده المعجبون ، ويتصرف كابن بار بأسرته ثم لا يطيع أوامر أبيه ، وينشر رواية تدور أحداثها عن أسرته ثم يبين مساوئها ، ويتوق للإثارة والهدوء ، ويتزوج

من نساء مثقفات متزنات ثم يرفضهن لأنهن مثقفات متزنات ، ويقوم بعمليات مطاردة جنسية للنساء ثم يرفض أى نقد موجه لهذه المطاردات، ويكتب روايات فاضحة عن اليهود ولكنه لا يفهم لماذا تستجيب المؤسسة اليهودية لرواياته استجابة سلبية .

وقد صدرت لروث روايات أخرى ، مثل : حينما كانت خيِّرة (١٩٦٧م) ، **وعصابتنا** (١٩٧١م) ، **والرواية الأمريكية العظمى** (١٩٧٣م) ، **وقراءة نفسى والآخرين** (١٩٧٥م) ، وأستاذ الرغبة (١٩٧٧م) . ومن آخر رواياته **رواية الحياة المضادة** (١٩٨٦م) حيث يستكشف معنى حياة اليهود فى إسرائيل وخارجها **وعملية شيلوك** (١٩٩٢م) .

تدور الرواية الأخيرة حول الكاتب نفسه (فيليب روث) الذى يذهب إلى إسرائيل لأجراء مقابلة مع كاتب إسرائيلى معروف ، وهناك يجد نظيراً له يحمل الملامح نفسها والاسم نفسه ويزعم أنه هو نفسه فيليب روث . يدعو فيليب روث الثانى هذا إلى مايسميه «نظرية النية» ومفادها أن الأجدى لليهود الهجرة من إسرائيل إلى أوربا لأن واقعهم الثقافى الحقيقى كان دائماً هناك ولأن إسرائيل ستكون الموقع الجديد لإبادة اليهود فى حرب نووية مع العرب ، كما يصبح المؤلف / البطل محور العديد من الأحداث التى تدور فى إسرائيل فى زمن الانتفاضة .